المشرق

المستشفى الطبي الفرنسويّ الجديد

نظر تاريخي اجتماعي لحضرة الابوين شرل نيرون وإميل رينو اليسوعيين

هذه اربعون سنة منذ نشأ في بيروت ذلك المكتب الطبي الذي أنعمت بهِ فرنسة على بلادنا السوريّة. هي الحكومة الفرنسويّة التي فوّضت هذا العمل الجليل الى رسالة الآباء اليسوعيين ليتولّوا شؤونهُ وتدبيرهُ في هذه المدينة فتبرّعت بالمها لتجعلهُ اهلًا باسمها وبشروعاتها الخطيرة. هي التي ارسلت لاقناء دروسهم فيهِ نُطس الاطبّاء الذين يُشار اليهم بالبنان فدفعت لهم رواتبهم بيدٍ سخيّة. هي التي سعت لدى الحكومة التركيّة بان تصدّق على الاجازات التي تمنحها لجنة الفاحصين المشكّلة من اختصاصيي الدولتين

فبفضل تلك الدولة الفخيمة وبهمّة رؤساء المكتب المذكور ومعلّميه الرهبان والعلمانيين بلغ غايةً ما كان ليؤمّلها العموم وكفى بالدليل الى ذلك اقرار رؤساء اللجنات السنويّة الفرنسويّة والتركيّة الذين أعلنوا على رؤوس الملا ولدى حكومتهم بان مكتب بيروت الطبي الفرنسوي جدير بان يُنظم في جملة المكاتب الشهيرة بهِ الشائعة في حواضر البلاد الاوربيّة. ويشهد على قولهم عدد المتخرّجين فيهِ طول هذه المدّة (مع استثناء اعوام الحرب) البالغين نيفاً وسبعمائة طبيب قانوني او صيدلي قانوني بينهم ممثلو كلّ الاديان وكلّ العناصر وكل بلاد الشرق فمنهم الكاثوليكي اللاتيني والماروني والكلداني والرومي الكاثوليكي والارثوذكسي والارمني الكاثوليكي والغريغوري

والسرياني الكاثوليكي واليعقوبي والقبطي وكذلك المسلمون من اهل السنّة والشيعة ثم الدروز والنُصَيريّون واليهود . اما اوطانهم فانها تتناول كل ممالك تركيّة سابقاً وجزيرة العرب والعراق والعجم وانحاء البلقان وجزائر اليونان ومصر والسودان والحبش يخدمون . كلهم الانسانيّة البائسة بهمتهم الشريفة وقد اصاب اكثرهم الاوسمة والامتيازات من حكومات البلاد

هذا فضلاً عن مئة منهم توفّاهم الله ذهب ثلثهم ضحايا الواجب وشهداء وطنيّتهم في مدّة الحرب الكونيّة

وقد دعا ترقي المكتب المتواصل الى ان يُنقل سنة ١٩١٢ من محلّه الاوّل بجوار كلّيّتنا الى مسافة ميلَين منها على طريق الشام ليس بعيداً من حرج صنوبر بيروت حيث بُنيت له معاهد واسعة لكل فرع من فروع الطبّ والصيدلة وبلغ فيها عدد الطلبة في اوّل فتحها نيفاً وثلثمائة طالب ولولا الحرب الكونيّة لكان ازداد هذا العدد الّا انهُ بسبب نكباتها هبط الى ما دون المئتين والامل معقود على ان غدهُ سيسمو فوق العدد السابق للحرب ولعلّهُ يبلغ الاربعمائة لاسيّما وقد أُضيف اليهِ مؤخّراً معاهد جديدة لعلاج الكلَب وعلم امراض الاسنان وعلم التوليد للقوابل

*

على انّ مكتباً طبّيًا تامّ العدّة وافي الاسباب لا غنى لهُ ليأتي بآثارهِ المأمولة من ان يُلحَق بهِ مستشفًى كبير عديد الاسرّة يتنوّع فيهِ المرضى ذوو العاهات المختلفة فيعاينها الطلبة في صحبة اساتذتهم ويتعلّمون بالاختبار تشخيصها واسبابها واعراضها وعلاجها ولولا ذلك لبقي علمهم نظريًا قليل الجدوى وفقاً لمثل القائل « اسأل مجرّباً ولا تسأل عالماً »

ادركت عمدة المكتب الطبي هذه الحاجة الماسّة الى مستشفًى خاصّ بهِ . وقد كانت الحكومة الفرنسويّة حاولت سدّ هذه الثلمة باستخدام مستشفى واهبات المحبة في وسط المدينة فلقي المعلّمون عندهنّ الوسائل الكافلة بتعليم الطلبة مدّة سنين عديدة الّا انّ ضيق المستشفى وقوانين الراهبات في تدبير المستشفيات وتمريض الاعلّاء مع ازدياد عدد التلامذة وبُعد المستشفى عن المكتب الطبيّ كلّ ذلك كان يقضي بتشييد معهد جديد احقّ بتعليم الدارسين واجدر بترقّي فنّ الطبّ في عواصم اوربّة

كما كانت تجاهر به لجنة الفاحصين السنوية

ذاك كان الشغل الشاغل الذي كان يهجس في صدر رؤساء المكتب الطبي منذ خمس عشرة سنة وخصوصاً في صدر حضرة كنشلياره الاب لوسيان كاتن الذي تفاني في خدمة المكتب المذكور وكان قبل الحرب تجشم الاسفار الى فرنسة لحل هذا المشكل فصادف لدى أربابها آذاناً صاغية وقلوباً واعية ومساعدات مالية دفعته الى مباشرة هذا المشروع الهام . فاسرع واقتنى ارضاً واسعة تبلغ مساحتها ثلثة هكتارات في موقع حسن في سفح تلال الاشرفية جنوباً ووكل الى احد رهبانه البارع في فن الهندسة والبناء حضرة الاب يوسف ماترن مع مساعدة المهندسين الشهيرين اميل خاشو ويوسف افتيموس القيام بهذا العمل الاثير فرسم الاب المذكور رسم المستشفى مراعياً لكل لوازمه وحاجات المرضى وأعدت كل موادّ البناء للمباشرة بالعمل اذ عصفت الحرب الكونية بالمكتب وآله وتبددت كل موادّ الابنية فتصرف بها الاتراك تصرف السيد بماله معلنين على رؤوس الاشهاد بأن فرنسة لن تعود الى تلك الاملاك المحجوزة

فما كادت تسكن ريح الحرب العاصفة حتى عاد الحق الى نصابه واستأنف اصحاب المكتب الطبي تدريس الطبابة بعد استدراكهم للخلل اللاحق بالمكان بسوء تدبير الاتراك

ولكن أنّى لهم ان يفكروا في تشييد المستشفى النويّ مع تلف موادّه وغلاء الحاجيات وهبوط اسعار القراطيس الماليّة ورقيّ اجرة العمّلة فلم يبق لهم الّا الامل الضعيف في تحقيق امانيهم فاكتفوا بعقد معاهدة مع اصحاب مستشفى القديس جاورجيوس لثلث سنين ليتردد اليه طلبة المكتب فيتمرّنوا فيه على ممارسة الطب وتطبيق مبادئه النظريّة على حقيقة الامراض والعلل واعتياد اعمال الرحمة والتضحية في سبيل البشريّة المتألمة . وما كان هذا الاتفاق المؤقت الّا ليثبت واضحاً حاجة المكتب الى مستشفى مستقل

*

ففي تلك الاثناء كان فخامة الجنرال غورو المفوّض السامي لفرنسة في هذه الاصقاع يحضر حفلات المكتب الطبيّ وتوزيع اجازاته فيتحقق عياناً ما صار اليه من التقدم العظيم وما نالته فرنسة بسببه من الشرف في سائر انحاء الشرق ولدى كل الملل

ففي السنة ١٩٢١ بناء على الحاح رئيس المكتب واساتذته رأى انهُ لا بدّ من حلّ تلك الأزمة فارتأى مع نائبه المهام السيو روبر ده كه انّ افضل وجه لبلوغ تلك الغاية ان يُتفق على تشييد المستشفى بقيّة ما رصدتهُ المفوّضيّة من ميزانيّة السنة المذكورة وهي تبلغ المليونين من الفرنكات لا يمكن صرفها في مشروع افضل من هذا العمل الآئل للخير العام ولخدمة العلم معاً

فكان المقصد الجنرال احسن موقع في القلوب وبهِ زالت كلّ العقبات الحائلة دون ترقي المكتب الى اوج الفلاح

فأسرع الاب المهندس مع رفيقيهِ واعدّ كلّ ما يلزم للقيام بالعمل فكانت اوّل ضربة معوّل لتشييد البناء في ١٢ كانون الثاني من السنة ١٩٢٢ . وبعدها بثلثة اشهر في ١٢ ايار من السنة وقعت تلك الحفلة المهيبة التي ذكرناها في المشرق (٢٠[١٩٢٢]: ٥٨٥) اذ وُضع الحجر الاوّل لهذا المستشفى بيد فخامة الجنرال غورو بعد ان باركهُ نيافة القاصد الرسولي فريديانو جنيني وحضر تلك الحفلة نخبة ما تحتويهِ بيروت من ارباب الدين واعيان الدولة الفرنسويّة والحكومة اللبنانيّة

وها هوذا المستشفى بعد سنةٍ فقط يبسُ بأبنيتهِ الفخيمة التي وقع تدشينها في ٢٧ ايار الماضي (اطلب المشرق ٢١[١٩٢٣]: ٤٩٥) بحفلة قلّما ترى بيروت مثلها رونقاً وأبهة تولّاها مفوّض دولة فرنسة الجديد الجنرال ڤيغان وحضر مع كلّ حاشيتهِ ذوي المناصب السامية صلاةَ تدشين المكان التي تلاها نيافة القاصد الرسولي

*

قد عنّا الآن نقوم بازاء هذا المعهد الجديد فنسرّح النظر في خواصهِ وميزتهِ . واوّل ما يستلفت اليهِ الابصار فخامة ابنيتهِ وجدرانهِ وارتفاع سطوحهِ يكسو بعضها الآجرّ الاحمر . يُرى من اعلاها شرقاً لبنان بمناظرهِ الفتّانة وقراهُ المزدانة بالخضرة والمحدقة بالاحراج يظلّلها رواق السماء السنجوني اللون . ويمتدُّ النظر جنوباً الى سهول الشويفات المخصبة التي تكسوها اشجار الصنوبر والزيتون ويقع غرباً على احياء بيروت ودورها الفخيمة

وقد دُعي هذا المستشفى بمنزل العناية الالهيّة الفرنسوي (Hôtel-Dieu de France) اشارةً الى مستشفيات فرنسة المتعدّدة التي لا تخلو منها مظم مدنها العامرة

والتي تجري فيها كلّ اعمال الرحمة حبًّا بهِ تعالى. فارادت تلك الدولة الصديقة ان تمنح سقاء بيروت بواحد منها. وهو باقٍ لذلك لها وانما تعيرهُ لحاجات المكتب الطبي

وهذا المعهد الجديد واقع في وسط ارض مساحتها ٣٥،٠٠٠ متر مربع اعني ٦٣،٠٠٠ ذراع وابنيتهُ تشغل منها حاضرًا مساحة ١،٨٠٠ متر . ومع اعتزالهِ عن ضوضاء المدينة ليس هو بعيدًا من المكتب الطبي فيسهل على الطلبة التردُّد اليهِ ذلك فضلًا عن قربهِ من قطار الترامواي

وقدِّم البناء باحة واسعة الارجاء طولها ٣٨ مترًا في عرض ٢٣ مترًا ما يساوي ٨٧٤ مترًا مربعًا فينفذ فيها الهواء النقي ومنها يلج الى كافَّة انحاء العمارة

ومجموع الابنية مربَّع الشكل من الامام الَّا انَّ واجهتها لم تُبْنَ حتى الآن وسيكون طولها ١٠١ متر ومساحتها ٨٠٠ متر مربَّع

ويتألَّف البناء الاوسط الكبير في اسفلهِ من الغرف الطبيَّة المعدَّة للوازم المستشفى وفوقها طابقان . ففي الطابق الاوَّل المعد وغُرَف العمليَّات الجراحيَّة ثم اربع قاعات واسعة طول كلّ واحدة ٢٢ مترًا في عرض تسعة امتار مهيأة لتمريض ٨٠ عليلًا من الفقراء مجَّانًا مع ثماني غرف منفردة يضاف اليها ١٢ غرفة للمرضى الموسرين الذين يدفعون نفقات تمريضهم . وهذه القاعات يُستطاع توسيعها في المستقبل . أمَّا الطابق الثاني فمختصّ بسكنى الراهبات اليوسفيَّات من جماعة ليون اللواتي عُهد اليهنَّ تدبير هذا المستشفى وتمريض اعلَّائهِ والقيام بشؤونهِ وقد اشتهرنَ منذ زمن مديد بضبط المستشفيات وعلاج المرضى لا يفوتهنَّ شيء من حسن تدبيرها

وعلى جانبي هذا القسم الاوسط بنايتان تتوازيان متزلتان عنهُ تسندهما اليهِ قناطر ينفذ فيها الهواء الطيِّب فيكسب المعهد بلالةً ونقاء، وتطهيرًا وقد أُعدَّت فيها اربع قاعات طولها ٢١ مترًا في عرض ثمانية امتار اثنتان منها للعمليَّات الجراحيَّة والطبابة بينهما غرفة للتعقيم والثالثة لمُنال المستشفى والرابعة لتمريض الصغار . وهناك ايضًا الحمَّامات والمراحيض . وفي كل جوانب البناء اروقةٌ نزهة مستندة الى اعمدة لطيفة مع بعض الدهاليز لحاجات المستشفى . وقد رُوعيت في كل مكان نواميس النور الطبيعي والصناعي

ويُرقى الى طبقاتهِ العليا بصاعدٍ يسهل على المرضى الارتقاء اليها او الهبوط منها

ومن ورائهِ بنايتان أُخريان على شكل U في اسفلهـا اجزائية (فرمشيَّة) وقاعة الاكل والمطبخ وما يلحق بهِ وقاعة لغسل الثياب مساحتها مئة متر مربَّع

والمستشفى في حالتهِ الحاضرة مُعَدّ لتمريض ١٤٧ عليـلًا وسيكفي اذا نجز لخدمة ٢٥٠ منهم واليوم يسعى اصحابهُ بتأثيثهِ واعداد كلّ لوازمهِ ليُباشر باستخدامهِ في شهر تشرين الاوَّل

ومِمَّا لم يتمّ في الوقت الحاضر واجهة البناء . وقد بوشر بتشييد مستوصف صحّي اجتماعي ومعهد عموميّ لمعاينة المرضى عند زاوية البناء الجنوبيَّة الغربيَّة ومنهُ يكون مدخل المستشفى الاهمّ ومساحة هذا البناء لا تقل عن ٤٠٠ متر مربَّع

وكذلك في نيَّة المهندسين ان يبنوا قريباً داراً خاصَّة بالامراض الوبائية تبقى معتزلةً عن سواها

فترى من هذا الوصف الوجيز ما للمعهـد الجديد من عظم الشأن لتلطيف آلام الانسانية فتستطيع بيروت ان تفاخر بهِ عواصم البلاد شاكرةً لفرنسة ومخلدةً لذكر هذه النعمة الحديثة التي نالتها من مراحمها ومن روحها الطيّبة المفعمة ديناً وحناناً

على انَّ مستشفًى كهذا لا يمكن تدبيرهُ الَّا بنفقات سنويَّة تبلغ مئات الالوف من الفرنكات ولا شكّ انَّ الدولة الفرنسويَّة سوف تسدّد القسم الاوفر منهـا الَّا انهُ يبقى لرجال الخير بيننا مجالًا واسعاً لإبداء ما فُطروا عليهِ من الانجيَّة والشفقة على البائسين فينالوا بحسناتهم شكر الصوم ولاسيَّما الأجر عند الربّ الذي يعدّ كصنوع لنفسهِ كلّ ما يُبذَل في سبيل علاج القريب ولا يُضيع قدح الماء البارد المعطى باسمهِ لأحد الصغار